دلائلية النبض في القصيدة الشعبية

د/ علي بولنوار
جامعة– المسيلة –

ما من شك أن الوصف يعدّ أحد مقومات الشعر الأساسية، بحيث لا يخلو فن منــه، وفي هذا المعنى يقول صاحب العمدة: « الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ولا سبيل إلى حصره واستقصائه» [1]. ففي جميع الأغراض لابد من اعتماد الوصف ودونه لا تستقيم الصوّر الشعرية، فهو في الحرب حماسة وفي الحسب والنسب والشــجاعة فخــر، وفــي المحاسن غزل، وفي الفضائل مديح وفي الحزن رثاء....

من المواضيع التي استهوت الشعراء، الطبيعة، التي وجدوا في أحضــانها فضــاءا رحبا للتعبير عن أنفسم، فأودعوها عصارة قلوبهم وعبروا مــن خلالهــا عــن آلامهــم ومطامحهم في الوقت ذاته، فجاءت بناء ا على ذلك صورة حية ناطقة تعكس همومهم في صدق ووضوح.

لقد كانت الطبيعة[2]ــ ولا زالت ــ مصدرا أساسا للإبداع الشعري، فهي تمثل خلفية حيّــة باستمرار في وعي الشاعر ولاوعيه بتفاعلها معه. فتبدو كما لو أن التوتر الذي يبدو عليها هو نفسه ما في ذات الشاعرأو العكس.

أول ما نشير إليه ــ في وصف الطبيعة ــ ذلك التحوّل الذي نلاحظــه فــي نظــرة الشعراء المحدثين بحيث نلمس نموًّا في إحساسهم وتعلقا شديدا بها، بعد أن كــان الطــابع الموحي بالقسوة والجفاف هو الغالب بوجه عام على وصف الطبيعة عند القدماء، وكــأن علاقة صُلح ودٍّ أقيمت بينهما حولت العلاقة من الصّراع إلى الألفة والمحبة.

وما ينبغي أن نشير إليه أيضاً، أن موقف الشعراء من الطبيعة له عدة اتجاهات. فهناك من وقف عند حدود المشاهدة الخارجية وعدّ الطبيعة مستراحا واكتفى بالتصوير الفوتوغرافي، أي بالنقل الحرفي لمظاهرها. وهناك من أشركها معه في أحاسيسه وداعب أجزاءها، لكنه لم يذب فيها. ودون شك أن هذا الصنف من الشعراء هو الذي يعنيه سيد قطب عندما قال: « الطبيعة في الشعر العربي قد تحيا وتدب ويحس الشاعر بما يضطرب فيها من حياة، ويلحظ خلجاتها، ويحصي نبضاتها، ولكنه هو لا يندمج في هذه الطبيعة، ولا يحس أنه شخص من شخوصها، وفرد من أبنائها وأن حركته من حركاتها، ونبضة من نبضاتها، وأنه منها وإليها وأحاسيسه موصلة بأحاسيسها» [3].

وهناك صنف ثالث اندمج في الطبيعة اندماجا كليا، وخلع مشاعره عليها محاولا بذلك تجسيم مشاعره ومنسلخا عن ذاتيته حتى يبلغ الخشوع والتأمل الباطني، منتقلا بعدها إلى ما أسماه علماء الجمال ظاهرة تغلغل الأنا في ثنايا الأشياء ، وفقدان الشعور بالشخصية، وجنوح إلى الاندماج التام. هنا فقط يصبح الشاعر فنانا مع الطبيعة لا مصوراً فوتوغرافيا، فهو معها كالطّفل الرضيع يتشبث بصدر أمه ليبقى يمتص رحيق الحياة الطهور، ثم يغفو ملء جفنيه . الفرق إذاً واضح بين من ينظر إلى الشيء بالعين وبين من ينظر إليه بالروح والوجدان وكل الحواس.

أما عن الشعراء الشعبيين فقد تعلّقوا هم أيضا الطبيعة بقسميها الصامت والمتحرك، ونقلوا منها مشاهد زاهية تهتزّ لها النفوس، فلقد وصفوا فيها الرياض والبساتين بأزهارها وأطيارها. دخلوا عالم الخيول فوصفوا أنواعها ومحاسنها، كما أسمعونا خرير المياه المتدفقة من منابعها، أصاخوا إلى الرعّد فوصفوه، حدّقوا في السماء غائمة وممطرة فتراءى لهم غيثها بكاءًا يبعث الحياة في الأرض بما يجلّلها به من أثواب زاهية مختلفة الألوان . وطبعا دون أن ينسوا النخيل والبحر وما إلى ذلك. كيف لا وقد عاش الكثير منهم في ربوعها الزاهرة ببساتينها وجبالها ووديانها ورمالها. ففي هذا الجوّ المنعش والطبيعة الخلابة تربوا حتى نمت في ذواتهم أحاسيس زاخرة بالمناظر الساحرة المليئة بالحركة والحياة فوجدوا أنفسهم مدفوعين لإبراز هذه الأحاسيس في صور شعرية رائعة. فلا نكاد نتعرض لغرض من أغراضهم إلا وجدنا عنصر الطبيعة مسيطراً على

موضوعاتهم جميعا، بل ولقد وُجد من الشعراء من أفرد قصـــائد يصـــف فيهـــا مظـــاهر الطبيعة.

النخلة من أجمل أشجار العالم. وارتباط العرب بها ظهر منذ العهد القديم، ولقـــد أشـــار بعض الدارسين لذلك: « وإذا كان قوم تصحّ نسبتهم إلى شجر النخيل فهـــم العـــرب ولا نستغرب أن يعتبروها أختا لآدم وعمة لهم، وقد عدّها فلاسفة العرب ومفكروهم وعلماؤهم في آخر أفق النبات وأول أفق الحيوان، فهي عندهم نبات حيـــواني لرقيـــه وخصائصـــه الكثيرة كما شبهها بعضهم بالإنسان عامة أو المسلم خاصّة » [4]

إضافة إلى ذلك فلقد تشرّفت أن وُلِدَ المسيح عند جذعها وذلك استنادا لقوله تعـــالى: « فحملته فانتبذت به مكانا قصيا، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبـــل هذا وكنت نسيا منسيا، فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربك تحتك سريا، وهزي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رُطباجنيا » [5].

وفي منطقة بوسعادة* إذا لم ينظم الشاعر الوصاف في النخلة ولو أبياتا معدودة فقـــد فاته شيء كثير وجعل شاعريته مدار تساؤل واستغراب، ذلك أن البيئـــة الصـــحراوية لا تكثر فيها أشجار مثلما تكثر فيها أشجار النخيل. ولا أظن أن الشاعر ابن البيئة قد ارتـــبط بأي نوع من أنواع الأشجار دونها.

لقد ظهر عامر أم هاني في قصيدته ذو قدرة فائقة على التصوير وصياغة العبارة التـــي تتيسر للمعنى وتتصاع له، بحيث لا نكاد نعثر له على صور ثابتة جامـــدة، فهـــو يلـــتقط الصورة ضمن مجالها المتحرك .

يبدأ بمقطع يُشبه فيه النخلة بالعالِم لكثرة أوصافها، بعدها ذهب يبيّن العلاقة بينها وبين الرّمل لينتهي إلى القول بأن الفصل بينهما أمر مستحيل إستحالة الفصل بين آدم وحواء.

وإجمالا فإن مصدر النخلة البيئة الصحراوية، ووجودها بعث الحياة في الأماكن التي كانت من قبل يابسة ميتة، يقول :

يا نــخله يا ســاكنه بر الأريــاح	مكــثرك بــوصــاف تشبه للعالــم
أنت في وسط أصحاري زينك لاح	وحبيت مكان من قبلك حــــاطم[6]
يا نــخله يا ســاكنه بر الأريــاح	مكــثرك بــوصــاف تشبه للعالــم
أنت في وسط أصحاري زينك لاح	وحبيت مكان من قبلك حــــاطم[7]
فزيت من ذا ارمل زدتيه أشبــاح	فــازين أعجبــتيه وصجلك رايم[8]
أنت كي أعفستيه أتقدر وصحاح	هو كي أكرش فيك لكراعــك حاكم[9]
من يفصلك عا ارمل ظنيت جاح	كــي حواء مقرون اســمها بآدم[10]

إن المتمعّن في الأبيات يدرك أن الشاعر قد أجاد الوصف، وذلك بفضل ما وظّف من ألفاظ ضخمة جزلة تناسب المقام، فأنت تحسّ أنه دعا الألفاظ فاستجابت له، وأهاب بها وأسرعت إليه، وهذا ما يوحي بأنه كان واعيا كل الوعي لدى اختيار الألفاظ. ومثل ذلك لفظ "الأرياح" فهذا ينفتح دلاليا على معان عدّة نذكر منها: أنها تشير إلى الإطار المكاني . كيف ذلك؟

فالرّيح تكثر وتشتد في الأماكن المنبسطة العارية، بحيث لا جبال تعيقها ولا مرتفعات تحدّ من سرعتها. وبما أن أشجار النخيل تنبت أكثر ما تنبت في الصحراء فإذاً لفــظ الأريــاح يفيد فضاء الصحراء، كذلك من الإيحاءات الأخرى للفظ أنه يدلّ على الخراب.

فالريح تحدث الزوابع الرملية التي من شأنها أن تعيق نموّ الأشجار، كما أنها تفسد المنتوج ، أي التمر وكذلك تكسر الأغصان وتتلف العديد من النباتات .

إلى جانب هذا فإننا نجد لفظ الأرياح يدلّ على المقاومة، فرغم ما تحدثه من أضـــرار إلا أن النخلة تظل صامدة صابرة، تكافح من أجل البقاء والعطـــاء . هـــذه الـــدلالات رغـــم اختلافها إلا أنها لا تفسد الصورة العامة، بل تعمل على إثراءها، بحيث يمكن القول عـــن النخلة إنها ساكنة بر الصحراء، أو بر الخراب أو بر المقاومة.

ومع بقية الأبيات نعثر لنا على عدد كبير من الألفاظ القادرة على الإيحـــاء فتفقـــد بـــذلك محدوديتها في أداء المعاني المتفق عليها وترسم أبعاداً جديدة، من ذلك نـــذكر : "فزّيـــت، اعفستيه، أكرش... ."

ومن بقية الأمور اللافتة في الأبيات ميل الشاعر إلى اســـتعارة خصـــائص الأحيـــاء وإلحاقها بالنخلة. وهذا فعل يدل على مدى نمو إحساس شاعرنا بالطبيعة، إذ لم يعد ينظر إليها صمّاء جامدة، فراح ينفث فيها الحياة حتى تصبح جديرة بحبه لها وهيامه بها. تظهر الاستعارة في قوله: "أنت كي اعفستيه". ففعل اعفس أي داس، من خصـــائص الأحيـــاء. كذلك قوله : "كي اكرش فيك ". ففعل أكرش أي مسك لا يمكن أن يكون إلا للأحياء. فـــي هذه الاستعارة لنا أن نتمتع بهذه الصورة الرائعة حقا. الرمل يُمسك برجل النخلة، إنها من إبداعات الخيال الحي المنتج، إننا فعلا أمام شاعر مقتدر استطاع بذكائه وخبرته الواســـعة أن ينتج صورا دقيقة عميقة تتحرك وتدب فيها الحياة، وهذا ما يسمح لنا القول إن استعمال الشاعر للإستعارات لم يكن من قبيل التظرّف فحسب. بـــل لأن الطبيعـــة ـــ النخلـــة ـــ أصبحت قريبة من نفسه، بل جزء من ذاته، وحديثا لحياته. تأملها مليا فأدرك خفاياهـــا، فتحت له قلبها فعرف أسرارها أحسّ بحزنها وسرورها مثلما يحس ذلك في عالم الأحياء.

بعد المقطع الذي يبيّن فيه أصل النخلة، يقفز الشاعر إلى مقطع آخر يرسم لنا فيه لوحة أخرى لا تقل روعة وجمالا عن الأولى. وهذه المرّة يعطي بعض الخصائص ليقول بـــأن النخلة تسكن جو السماء ـــ على حد تعبيره ـــ رأسها مرفوع دائما، عالٍ. أمـــا جريـــدها فممشوط يتدلى على الأطراف منه نوع يبقى قائما وهو الذي يكون في القسم الأعلى منها، إلى جانب هذا فهوـــ الجريد ـــ دائم الخضرة طوال السنة، ولا يتأثر ببـــرد الشـــتاء ولا بالجليد ولا حتى بحرارة الصيف، يتحمّل الغبار والرياح الشديدة القوية. في هذا المعنـــى يقول:

وسكنت جو اسماء قصد التفساح فيه راسك مـــرفوع متعلي دايـــم
أجريدك ممشوط في جنبك دلواح ولـــي في قطايتك واقــف قايـــــم[11]
طول العام بخضورتو دايم فحفاح ضاحك عالفصول من راح أقـــادم[12]
ما هلكو برد أشتاء وجليدو طاح ما حرقو ذا الصيف في صهد أصمايم[13]
متحمل غبار يعمي والأريـــاح وذا جـــار أعليه لـــحراب فـــاهم
ما تحسبش إنسل وجريدو طاح يـــتمايـــح بساسيه بـــه إقـــاوم[14]

يتحدث الشاعر في الأبيات عن خاصيتين: الشموخ، ويظهر ذلك في البيت الأول الذي ضمّه مجموعة ألفاظ وصور تعكس ذلك بوضوح . معتمدا على المعاني والإيحاءات دون اللجوء إلى الإستعارة أو التشبيه.

والملاحظ أنه اعتمد نمطين من الصورة، مباشرة وغير مباشرة . المباشرة يعكسها الشطر الثاني من البيت : "فيه رأسك مرفوع متعلي دايم" معنى الشموخ هنا واضح ولا أظن أنـــه يحتاج إلى إظهاره خصوصا وأن الشاعر قد ضاعف في اللفظ المـــوحي ليشـــدّد علـــى الخاصية وذلك بقوله: "مرفوع، متعلي".

أما الصورة الثانية، أو غير المباشرة فنلمسها في الشطر الأول من البيت:

"وسكنت جو أسماء قصد... ".فعبارة : جو أسماء ، تدل على العلوّ الشامخ، ومنه يســـتفاد بأن النخلة شامخة.

أما الخاصية الثانية فهي المقاومة، وتتمثل رموزها في عدم تأثر النخلة بـــالبرد والجليـــد والحرارة، وكذلك بتحملها للغبار وللرياح الشديدة.

ما يلاحظ هنا أن الشاعر استخدم عبارات دقيقة تنقل المعنى كاملا غير مجزوء، من ذلك قوله: "برد أشتاء ". فلقد كان بالإمكان أن يكتفي بلفظ برد لكن عندها لا يـؤدّى المعنـى كاملا وبدقة، لأن البرد مستويات أشدها وأقساها الذي يكون في فصل الشتاء، لذلك تـراه يؤكد على هذه الناحية وذلك حرصا منه على أن يبعث في ذات المتلقي المعنـى المـراد بدقة.

كذلك الشأن في قوله: "في صهد الصمايم". فالصيف حار لكـن حرارتـه تتفـاوت فـي درجاتها، ودون شك فإن أشدّها التي تكون في فترة ما يسمّى بالصّمايم.

أما قوله: "غبّار يعمي"، فهي عبارة تؤدي الغرض ذاته . فلو قال الشاعر "متحمّل للغبار"، ستكون الصورة عندها واضحة، لكنها بالتأكيد تكون أكثر فاعلية وتكون بها أشدّ انفعالا عندما يقول : غبّار يعمي، لأن لفظ يعمي يوحي بالقوّة مع القسوة والهلاك. لذلك فالصورة هنا أبلغ وأدقّ .

ويبدو أن الشاعر لم يكن دقيقا في توظيف العبارات الشعرية فحسب، بل فلقد ظهر دقيقـا كذلك في صنيع آخر. فعندما قال في البيت الرابع :

ما هـلك برد أشتاء وجليدو طـاح　　　ما حرقو ذا الصيف في صهد أصمايم

فماذا لو قلبنا شطري البيت وقلنا أو قال الشاعر :

ما حرقوا ذا الصيف في صهد اصمايم　　　ما هلكو برد أشتاء وجـليدو طـاح

الظاهرأن المعنى بقي هو نفسه، لكن الذي يتفحّص في المعاني يجد بـأن الصـورة قـد اهتزت وضعفت. وذلك لأن ترتيب الشاعر لم يكن من فراغ، بل فلقد كانت له رؤية فـي ذلك تتمثل في مستوى المقاومة فتحمل النخلة للحرارة أمر هين من تحمّلها برد الشـتاء . وذلك لأن النخيل تنبت في الصحراء أي في الأماكن الحارّة، وإذاً فالحرارة جـزء مـن تركيبتها المناخية، بينما البرد يعدّ عنصرا دخيلا. لذلك فهي ــ النخلة ــ تتأثر به أكثر من تأثرها بالحرارة . ولذلك بدأ الشاعر به لأهميته. وبالتالي فالمعادلـة لا تكـون صـحيحة عندما نتصرف في البيت ونقلب شطريه.

وبين الشموخ والمقاومة يقف الشاعر لينقل أو لنقل ليبدع لنا صورة وصـفية فـي غايـة الروعة والجمال. وذلك عندما يتخيّل الجريد شعرا ممشوطا يتدلّى على جذع النخلة، بينما القسم العلوي منه واقف قائم.

إننا ونحن نقرأ البيتين يغمرنا إحساس وكأن شاعرنا قد نقل إلى أذهاننا الصورة مجسّـمة فقرّب إلينا المشهد وأقامه أمام أبصارنا ماثلا كامل الأجـزاء، لكـن دون أن يُفهـم بـأن الصورة هنا قد أصبحت مادية لا روح فيها، غايتها أنها رسمت المشهد وفقط. وبالتـالي أصبح شاعرنا عبدا للطبيعة لا يملك أن ينفلت من قبضتها. فالعكس تماما هو الصـحيح. فالطبيعة تلوّنت حسب لون روحه ــ وإن كان هذا التّلوين يختلف في العمق والتناول من تجربة إلى أخرى ــ فتبدو عندها أكثر حيوية مرتقية من مستوى النباتات إلـى مسـتوى البشر. فالنخلة كائن يحسّ ويعي وكل ذلك بفضل التشخيص وما يحدث في هذه الأداة من تفاعل وتداخل في الدلالة. إن شاعرنا صاحب ذات حية وإدراك واعٍ بأجزاء الموصوف، ولقد امتد هذا الإدراك إلى حد أنه أظفى على الجريد جزءا من ذاته، أو لنقل خاصية مـن خواصه. يظهر ذلك في الشطر الثاني من البيت الثالث عند قوله: " ضـاحك عالفصـول ".... فالضحك خاصية بشرية . مرد هذه الصورة أن الشاعر نظر إلى الجريد فرآه كثير الحسن فائق الجمال دائم الخضرة، فتأثر لرؤيته ولم يكتف بنقله عبر حواسه الخارجيـة، فراح يتأمله بأنفاسه، وعندها لم يعد مشهدا خارجيا في الطبيعة بقدر ما هو كيان داخلي في نفسه. وفي هذه الحالة لم يعبّر الشاعر خلاله عما رآه وحسب، بل عبّر مما رآه إلى ما شعربه. وبذلك فقدت النخلة ذاتيتها كشجرة من عالم النباتات لتتحوّل إلـى كـائن يمتـاز بخصوصيات البشر. وهذا الصنيع يوحي بمدى وعي الشاعر الشعبي بتشخيص الطبيعـة وتصويرها على نحو إنساني تملأه الحركة والنشاط.

وإلى جانب أن الشطر من البيت يعكس صورة تشخيصية، فهو من جانب آخر يفيد رؤية ثانية، مفادها الصراع بين عناصر الطبيعة .

فكون الجريد ضاحك على الفصول معناه أنه يتحدّاها، وكأن حربـا أو عـداءًا بينهمـا. فالفصول رغم ما تمتاز به من قوّة الهدم والخراب إلا أنها وقفت مشلولة عاجزة لا قيمـة لها حيال النخلة، بحيث لم تستطع أن تمارس وظيفتها في إصابتها بتغيير هويتها، فهي لـم تستطع أن توقف خضرتها. وهنا تأخذ النخلة صفة جديدة إلى جانـب صـفتي الشـموخ والمقاومة ألا وهي صفة التحدّي .

هذه إذاً رؤية الشاعر في البيتين ولكي يقويها نراه وقد أحكم فيهما جو الوصف بمـا انتقى من المعاني والألفاظ انتقاء محكما، فتراه يذكر اللفظ ويدعّمه بـآخر قصـد تقويـة المعنى، من ذلك قوله: "واقف قايم". فلفظ قايم يؤدي نفس معنى واقف، وقبل هـذا نـراه

وقد اتّبع الأسلوب نفسه عندما قال : "طول العام ... دايـم". فلفـظ دايـم يفيـد الـزمن المتواصل، تماما كما هو الحال بالنسبة لعبارة طول العام. ولا أظن أن هذا التضعيف كان القصد منه التكرار النمطي الساذج أو هو ضرب من الزخرف اللفظي لأن ذلك معنـاه أن الكلمة قد أصبحت غاية بذاتها، وبالتالي أصبح الشعر شكلا صنْعيا باردا. والحـال لـيس كذلك عند شاعرنا.

ولكي يقوي الصورة نجده يتبع أسلوبا آخر، وهو نظام التقابل بين الألفاظ كقوله: " راح أ قادم " أي ذاهب وقادم. فهذا التضاد يبعث في العبارة الشعرية معاني الحركة والنشـاط، ويزيدها قوّة وتأكيدا.

تتلاحق الصوّر وتتتابع عند عامر أم هاني متحدّثا عن النخلة، فيرسم لوحـة جديـدة الهدف منها إظهار صفات أخرى . وكأن الحديث هذه المرّة عن الصّـبر، فهـي عنـدما تعطش تصبر، وعطشها لا يؤثر فيها بحيث كل من ينظر إليها يلمس جمالها الناعم. إنهـا لا تسقى كبقية الخضر، التي تُعطى الماء حتى تعوم فيه. والملاحظ أن صبرها يبدأ مـن يوم غرسها بحيث تُلقى جذورها في أعماق الأرض اليابسة، يقول :

كي اعطشت ماذا أصبرت للتشراح   من شافك فاللون قا زينك ناعم[15]
ما سقاوك كما الخضرة فـي للواح   والحوض المليان بـمياهو عايـم[16]
راهي فـي لعماق اعروقك تتلاح   في ذي لرض اليابسه تظهر حاطم[17]

ما هو شديد البروز في الأبيات أن صاحبهم قد حاول أن ينتزع معاني الصّبر من الضعف ومن القوّة معا. وذلك حتى يعكس عظمة النخلة.

بدأ الأبيات بصورة دالة على الضعف والإنكسار عندما يقول : "كي اعطشت"، فـالعطش من الحالات التي تضعف النخلة، بعد ذلك انتقل ليعطينا صورة قوية وتتمثل في قوله: "من شافك فاللون قا زينك ناعم". أعتقد أن لهذه الصورة دلالتها اللافتة، عندما أعطى صـورة

جميلة ــ للنخلة ــ وهي في حالة ضعف أي عطش. فماذا لوكانت في غير هذا الحال؟! دون شك فإنها ستكون أكثر قوّة وأكثر جمالا.

والشاعر إذ ذهب هذا المذهب فلكي يشير إلى تلك القدرة العظيمة التي تمتاز بها النخلة في جميع حالاتها الأمر الذي يظهر عمق صبرها.

و في البيت الثاني يعطينا مشهدا للضعف الذي يُراد به القوّة ، فالخضر تُعطى الماء حتى تُمتلأ أحواضها بل وتعوم. وكثرة المياه تدل على أنها لا تستطيع أن تعيش بأقل من ذلك. وإذاً فهي لا تصبر على العطش. وهذا ما يجعلها ضعيفة، وفي ذات الوقت ما يجعل النخلة قوية لأنها تقدر على ذلك.

أما في البيت الأخير فيرسم صورة يظهر من خلالها مدى صبر النخلة ، فقوله: "راهي في لعماق اعروقك تتلاح". فهذا يشير إلى المسافة الكبيرة التي تبعد فيها عروق النخلة عــن المياه، والــمعروف ان المياه تقل كلما نزلت في الأرض، وهذا ما يمكن أن يســبب لهــا الجفاف.

ويختم البيت بقوله: في ذي لرض اليابسه تظهر حاطم . أي أن النخلة تغرس أساسا فــي أرض شحيحة بالمياه. بهذا الشكل تكون صورة الصبر قد اكتملت عند شــاعرنا لينتقــل بعدها إلى آخر صفة تتميّز بها النخلة وهي الكرم. فبعد العذاب الذي تمــرّ بــه تطــرح خيرها، فإذا هو تمر من النوع الممتاز، دقلة نور الغاليه، تخرج فــي عــراجين متدليــة والعسل يقطر منها. يقول الشاعر من يتذوقها، لابد وأن يعود إليها. ومن كثــرة المنتــوج ترى الناس تشبع مما هو متساقط تحتها فقط، فيا سعد الذي يمتلكها أو هو خادم لها. فهــي تكرم أهلها وضيوفها وكذلك السياح، بل وتصدّر إلى خارج الوطن. إنها مصــدر راحــة كذلك، للملكة والعروس، فهي ذات فضل على العباد ولا يــمكن أن يجحد خيرها ســوى الآثم، ويتابع الشاعر قائلا بأن الأفراح تعمّ الناس كما تغمرهم السعادة وقت ثمارها، يقول:

بعد ذا العذاب يــخرج ثــمرك لاح	دقلت نور هي غاليه سال الفاهم
فــي أعراجين مدليه وعسلها ســاح	من ذاقها كي روح إولــي قادم[18]
تشبع العباد قا من لــي هُــ طــاح	يسعد من هي ليه ولى هُــ خادم

أكرمت ناسك أضيافك والســـواح	وذا خيرك فاض يـــخرج للعالم
مليكه وعروس من شافك يرتـــاح	فضلك يا نـــخله من جحدو آثم
وقت أثمارك اتعمنا قاع الأفــراح	لكن ذا الأرزاق ما توجد دايــم

رغم أن الشاعر حاول رسم صورة لكرم النخلة، إلا أننا نلمس خصائص كثيرة لهـــا، حتى كاد أن يجعلها أهم شجرة مثمرة. فهي عزيزة غالية، وما يعكس ذلك قوله: "بعــد ذا العذاب يخرج ثمرك لاح" فالنخلة لا تعطي منتوجها بسهولة ويسر إذ لابد وأن يسبق ذلك عذاب لذلك فهو عزيز غالٍ، وهذا الذي يصرّح به الشاعر عند قوله: "دقلت نـــور هـــي غاليه" .

من الصور الأخرى،الدالة على أهميتها قوله: "من ذاقها كي روح إولي قادم". وكذلك قوله: "يسعد من هي ليه ولي هُــ خادم". ليس هذا فحسب بل وأضاف قائلا : "مليكةوعروس من شافك يرتاح" والمعروف أن طعام الملكة لا يكون إلا من النوع الرفيع الممتاز، وكذلك الحال بالنسبة للعروس، إذ لا يقدّم لها إلا النوع ذاته.

آخر الصوّر الدالة على أهميتها قوله: "وقت أثمارك اتعمنا قاع الأفراح" وإلى جانـــب أنها عزيزة غالية ومهمّة فهي كريمة، ولإبراز هذه الخاصية نرى الشاعر وقد حشد صورا عديدة دالة من ذلك قوله: " في أعراجن مدليه" فكلمة أعراجن جمع مفردهـــا عرجـــون، وأعتقد أن هذه الكلمة جاءت في صيغة الجمع ليدل الشاعر بها على الكثرة، لا أنها جاءت كذلك بمجرد الصدفة، وذلك لأن منطلقه كان إثارة معاني الكثرة التي تعكس الكرم. كذلك قوله: "تشبع العباد قا من لي هُــ طايح". والملاحظ هنا أن الشاعر قد توسّل بالكناية تقوية للصورة، فالناس تشبع من التمر المتساقط على الأرض، فهذه كناية علـــى الـــوفرة فـــي المنتوج. وبالتالي فهي إشارة للكرم. أما ما يتبقى في العراجين والذي بالتأكيد يمثل القســـم الأكثر فيعد فائضا.

هذه إذاً نخلة عامر أم هاني، رغم واقعية الأمور وإدراكنا المسبق لبعض معانيها، إلا أنه بفضل كيفيات الصياغة منحنا شعورا بأننا نقرأ هذا اللون من الوصف لأول مرّة، ليس هذا فحسب، بل ونشعر بأننا محتاجون لمعاودة القراءة مرّات عديدة لما تتركه مـــن أثـــر بفضل ما تحدثه في النفس من ثورة وتـــحوّل، إنها حقا صور دقيقة وجميلة أحسن الشاعر

إنتقاء عناصرها، ويؤكد هذا النمط من التصوير أن الشاعر عندما يتناول موضوعا متّصلا ببيئته نابعا من وجدانه يبلغ غاية الجودة، فيأتي شعره صادق العاطفة غزيـر المحتـوى، خصوصا إذا اعتمد لغة ابتعد فيها عن الجري وراء الغريب من الألفاظ، واختـار اللفـظ الجزل المستقيم ذا طاقة شعورية دالة، ومحتوى نفسي مؤثر.

هذه إذًا جولتنا مع الشعر والنخلة، وكما لاحظنا ففي أغلب الشواهد برزت الطبيعة وقد ملكت على الشاعر نفسه، فما استطاع أن يتجرد من تأثيرها أو يبتعد عن جوها. والسر في ذلك دون شك يعود إلى نوعية التعامل، بحيث لم يقف الشاعر ـ في الأغلب ـ عند ظاهر الطبيعة لينقل ويجسد الظاهرة كما تبدو للحواس وكأنها وصف علمي جاف خاوٍ من حرارة التجربة، بحيث لا يصهرالتجربة بذاته ولا يتولاها بخياله ويكتفي بالمشاهدة الخارجية والتقرير، بل نفذ مما يُرى إلى ما يتراءى، من المادة إلى روح وراءها، ذلك أن الشعور اعتراها بحرارته، استمد منها وأضفى عليها. وهذا ما يجعلنا نقول بأن وصف الشاعر، كان وصفا وجدانيا.

وكما هو معروف فإن الوصف الوجداني تغلب عليه النزعة النفسـية، فتفـيض ذات الشاعرعلى الموجودات « حتى تطالعنا بأحداق وملامح إنسانية تضحك وتبكي، تطـرب وتشقي، تتناجى وتشتكي. تعاني وطأة الوجود وتغتبط به، فكأنها إنسان متكامل سـوي، أو كأن الشاعر يصف ذاته من خلال الأشياء »[19]ولقد ساعد على ذلـك اعتمـاد الشـاعر الاستعارة التي تنم عن تطور إحساسه بالطبيعة ليواجهها مواجهة جديدة متحـررا مـن رتابة الواقع وعلاقاته المألوفة. فبفضل هذه الأداة ومـا يحدث فيهـا من تفاعـل وتداخل الدلالة ظهرت الطبيعة أكثر نبضا وحيوية، فارتقت مظاهرها من مستوى الجمادات إلـى المستوى الإنساني.

الهوامش:

ــ ابن رشيق : العمدة ج2 ، ص : 294 .

2 ــ انظر سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي ، دار المعارف، القاهرة ط2 ، 1978 ، ص : 33 وما بعدها.

3 ــ سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، القاهرة ، ط7 1993 ص: 148 .

4 ــ عبد الكريم اليافي : دراسات فنية في الأدب العربي ، دار الحياة دمشق، 1972 . ص : 507 .

5 ــ مريم : 22 ، 23 ، 24 25 .

*ــ بوسعادة . مدينة تقع في الجنوب الجزائري

7ــ زينك : جمالك. لاح : ظهر . حاطم : يابس.

8 ــ فزيت : نهضت. اشباح: رونق . رايم : مناسب.

9 ــ اعفستيه: دستيه. اتقدر واصحاح: قوي وعفي. اكرّش : يتمسك . أكراعك: رجلك (جذعك). حاكم : قابض.

10ــ جاح: غير متزن .مقرون : مقترن.

11ــ دلواح : يتدلى. قطايتك: قمة النخلة.

12ــ فحفاح : زاه.

13ــ اصمايم : أربعون يوما في فصل الصيف شديدة الحرارة.

14ــ إنسل : ينزهه. يتمايح : يتمايل. بساسية: بهدوء

15ــ للتشراح : التشقق.

16ــ للواح : الأحواض. عايم : ممتلئ.

17ــ تتلاح : ترمى

18ــ ساح : تدفق.

19ــ إيليا حاوي : فن الوصف، دار الكتاب اللبناني بيروت ،1967ص : 12.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1ـ ابن رشيق المسيلي. العمدة في محاسن الشعر ونقده. تح، محمد عبد الحميد، بيروت، ط5 1981.

المراجع:

1ـ إيليا حاوي : فن الوصف، دار الكتاب اللبناني بيروت ،1967
2 ـ عبد الكريم اليافي : دراسات فنية في الأدب العربي ، دار الحياة دمشق، 1972
3 ـ سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي ، دار المعارف، القاهرة ط2 ، 1978
4 ـ سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، القاهرة ، ط7 1993